

الاستعارة الأنطولوجية "الحرب إنسان في شعر المعلقات"

(مقاربة عرفانية)

Metaphors of Ontology: War is a Human Being in Al-Muallaqat

A Conceptual Metaphor Analysis

اعداد الباحثة/ جهاد معلى

دكتوراه في اللغة والحضارة والآداب العربية، أستاذة جامعية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية صفاقس-تونس

البريد الإلكتروني: moallajihed@gmail.com

رقم الهاتف: ٢١٤٦٦٨٨٦

ملخص

إن تفحصنا علامة الحرب وتفحصنا عالمها وإشاراتنا وأشراطها عن طريق هوامشها وجزئياتها مكننا من تبين توحد أجزاء استعارة الحرب في رؤية كلية تجلي ظواهر ومعاني جديدة تبلغ بنا شكلا أرقى في الفهم، إذ أننا نحتاج إلى أن نجعل أجزاء هذه الاستعارات الجاهزة فنركب بعضها ببعض ونبنى منها استعارات جديدة تكون نتاجا لتضافر الأجزاء وتعالقها فيغدو تمازج هذه الأجزاء أمرا مهماً قد يقودنا إلى تبيان حقائق ومفاهيم جديدة عن تصورات شعراء المعلقات. أو ليست محاولة تأويل كل جزء منعزلا عن الآخر، قادتنا إلى فهم غير كلي عن رؤية شعراء المعلقات للحرب. أو ليس حريّا بنا ضم بعضها ببعض حتى لا تفترق فيفتقر المعنى إلى متمم وحتى نلتقي فيستقي كل جزء من معين صاحبه وتتدفق معان جديدة من بعد أن مزجت. إنها يجب أن تتفاعل وتتعاقد وتتدمج من أجل إجلاء فهم متكامل ليست تغشيه سحابة غموض، ولن نتيج لنا إحدى هذه الاستعارات بمفردها فهم هذه الظاهرة بشكل شامل ومتناسك،

أما إذا نظرنا إليها مجتمعة فإنها تعطينا فهما منسجما لهذا التصور في كلياته هكذا أسهم التفاعل بين الاستعارات الوضعية الثلاث في إنتاج استعارة واحدة أبت إلا أن تجمع شتات أجزائها وهوامشها في استعارة كلية لتصور قلق الشاعر تجاه ظاهرة الزوال الكونية مما جعله أبدا يصارع الموت بالبحث عن حقيقة الوجود وهذا ما يعمق فكرة الصراع الذي لا ينتهي ما دام الإنسان ساعيا إلى فهم وجوده.

الكلمات المفتاحية: علامة الحرب، تفاعل الاستعارات، البحث عن حقيقة الوجود، الفهم المنسجم للتصورات.

Metaphors of Ontology: War is a Human Being in Al-Muallaqat

A Conceptual Metaphor Analysis

Abstract

Our investigation of the icon WAR and of its associations, symbols, and conditions through its own details enabled us to identify the unification of parts of the war metaphor. This investigation uncovers many aspects and new meanings that enable us to achieve a better understanding. That is because we need to gather parts of these ready-made metaphors and built them together so that we can come up with new metaphors out of the small components. This infusion among parts of a metaphor can lead us to understand truths and new meanings about the way poets conceptualize the Mu'Allaqat. Isn't it the attempt to understand every part separately from the other what led us to an incomplete understanding of the conceptualization of the Mu'Allaqat to the metaphor war? Isn't better to combine all the different parts so that meaning can be complete and so that new meaning can overflow? All the different parts of metaphor should come together to come up with a complete understanding free of confusion and ambiguity. Focusing on only one of these metaphors would not allow us to have a full complete picture of the phenomenon. That is why we need to analyze it as a whole to have a coherent understanding of this conceptualization. This is how the infusion between the three types of metaphors has contributed to the production of a single complete metaphor to understand the worries of the poet towards the universal vanishing phenomenon. These worries are what made him fight death in his endeavor to look for the meaning of the universe and this is what accounts for the idea that fighting will never end as long as the man tries to understand his universe.

Keywords: The Icon war, The infusion between the metaphors, Endeavor to look for the meaning of the universe, A coherent understanding of this conceptualization.

تمهيد:

ليس من شك في أنّ شعر المعلقّات هو من النصوص القديمة تخلّق من رحم البيئة الجاهليّة وهو إلى ذلك أيضا من النصوص العجيبية من حيث أنّه ولود للمعاني الدائمة ورغم أن تلك النصوص قرئت قراءات مختلفة ومتعدّدة، فإننا نعتقد أيضا أنّ كلّ المناهج التي استهدى بها الدارسون في قراءة شعر المعلقّات قد تولد نتائج طريفة ممّا قادنا إلى اختيار العرفانية منهجا به نستهدى في قراءة شعر المعلقّات قراءة عرفانيّة في ضوء الاستعارة التصرّوية، فكيف يمكن للعرفانيّة أن تنشئ معاني جديدة من معانٍ قديمة وكيف يمكن تقطير تلك المعاني المتقدمة في قوارير جديدة؟

ويرتكز الرّهان في هذا المقال على: قراءة شعر المعلقّات قراءة عرفانيّة في ضوء الاستعارة التصرّوية الأنطولوجية قصد فهم نوات أصحاب المعلقّات والنفاذ إلى بواطنهم نفاذا عميقا ومعرفة كيفية تصوّر شعراء المعلقّات للكون والعالم من خلال ما يهيمن على اشعارهم وما يطفو على سطحها من الاستعارات التصرّوية الأنطولوجية.

١- مفهوم الاستعارة الأنطولوجية (ص ١٥٤)

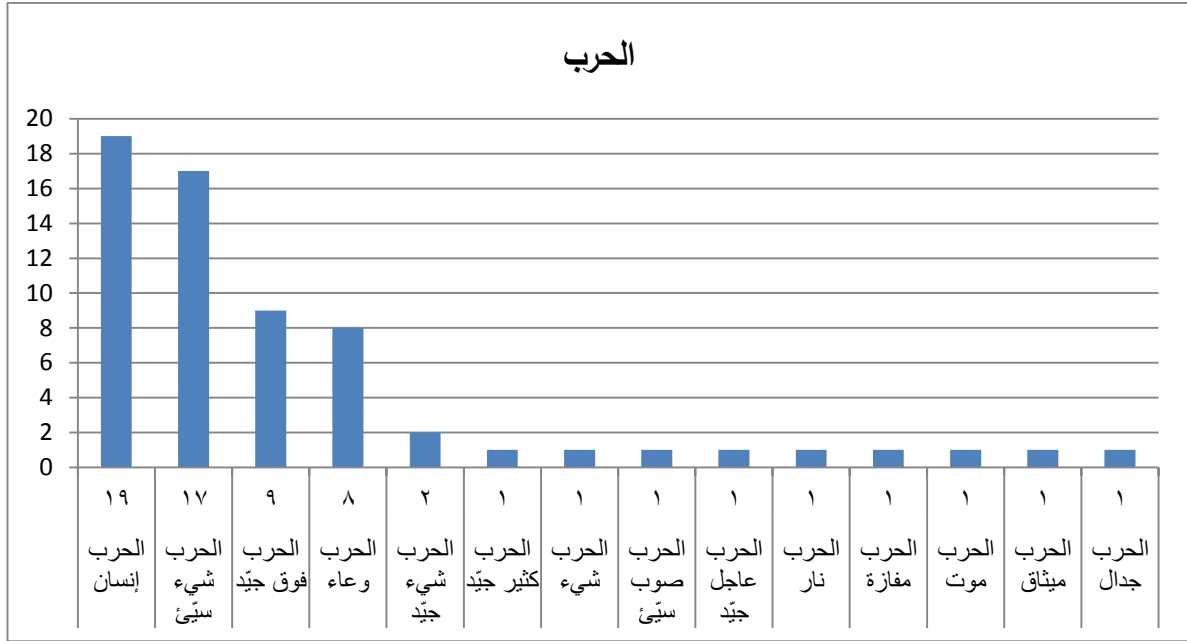
- بعد أن أنعمنا النّظر في المدوّنة تبين لنا أن شعراء المعلقّات احتفوا بكلمة الحرب ممّا جعلهم يستعملونها بكثرة في كلامهم.

ولمّا عمدنا إلى احصاء كلمة الحرب في المدوّنة عددا تبين لنا أنّها تواترت ثمان وستين مرّة ويمكن تبعا لذلك اعتبارها كلمة مركزيّة.

٢- بنية الاستعارة التصرّوية الأنطولوجية للكلمة المركزيّة الحرب

الحرب			
إنسان	ضيق سيئ	شيء جيّد	
شيء سيئ	طويل جيّد	مفازة	
وعاء	جدال	نار	
فوق جيّد	شيء	عاجل جيّد	
ميثاق	كثير جيّد	صوت سيئ	موت

الرسم البياني للاستعارة التصورية لكلمة حرب



يُتضح لنا من خلال الرسم البياني أن الاستعارة التصورية الكبرى هي استعارة «الحرب إنسان»، إذ أنها تواترت تسع عشرة مرة فهيمنت بهذه النسبة على باقي الاستعارات الفرعية، وقد تواترت استعارة «الحرب شيء سيئ» سبع عشرة مرة، وتواترت استعارة «الحرب فوق جيد» تسع مرات، وتواترت استعارة «الحرب وعاء» ثماني مرات، وتواترت استعارة «الحرب شيء جيد» مرتين فقط، في حين وردت باقي الاستعارات مرة واحدة.

٣- جدول الاستعارات التصويرية

الاستعارة التصويرية المستخرجة من الكلمة المركزية	البيت	البحر	لكلمة المركزية
إنسان	٤٣ أَلَا رَبُّ خَصْمٍ فِيكَ أَلْوَى رَدَدْتُهُ نَصِيحٍ عَلَى تَعْدَالِهِ غَيْرِ مُؤْتَلِي ^١	الطويل	الحرب
إنسان	٧٢ يُضِيءُ سَنَاهُ أَوْ مَصَابِيحُ رَاهِبٍ أَمَالِ السَّلَيْطِ بِالدُّبَالِ الْمُفْتَلِ ^٢	الطويل	

^١ أي أنه يخبرها بحبه الشديد لها غير مبال بلوم اللأئمين. الأنباري (ابو بكر)، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، تحقيق وتعليق، عبد السلام محمد هارون دار المعارف الطبعة الرابعة ١٩٨٠، (امرؤ القيس)، ص ٧٣.

^٢ يميل المصباح إلى جانب فيكون أشد إضاءة لتلك الناحية من غيرها. المصدر نفسه، (امرؤ القيس)، ص ١٠٠.

إنسان	٨٣ فَأَلْبَيْتُ لَا يَنْفَكُ كَشْحِي بِطَانَةٌ لَأَبْيَضَ عَضْبِ الشَّفْرَتَيْنِ مُهْتَدٍ ^١	الطويل
إنسان	٨٧ وَبَرَكَ هُجُودٍ قَدْ أَنْارَتْ مَخَافَتِي نَوَادِيَهُ أَمْشِي بِعَضْبٍ مُجَرَّدٍ ^٢	الطويل
إنسان	٤٩ وَمَنْ يَبْغِ أَطْرَافَ الرِّمَاحِ يَتَلَنَّهُ وَلَوْ رَامَ أَنْ يَرْقَى السَّمَاءَ بِسُلْمٍ ^٣	الطويل
إنسان	٤٣ سَبَقَتْ يَدَايَ لَهُ بِعَاجِلِ طَعْنَةٍ وَرِشَاشٍ نَافِذَةٍ كَلَوْنَ الْعَنْدَمِ ^٤	الكمال
إنسان	٤٨ وَمُدْجِحِ كِرَةِ الْكَمَاءِ نَزَالُهُ لَا مُمَعِنٍ هَرَبًا وَلَا مُسْتَسْلِمٍ ^٥	الكمال
إنسان	٤٦ تَهَدَّدْنَا وَأَوْعَدْنَا رُؤْيِدًا مَتَى كُنَّا لِأَمِّكَ مَقْتُوبِينَ ^٦	الوافر
إنسان	٤٨ إِذَا عَضَّ الثَّقَافُ بِهَا اشْمَأَزَتْ وَوَلَّثَهُمْ عَشُورَنَّهُ زَبُونًا ^٧	الوافر
إنسان	٤٩ عَشُورَنَّهُ إِذَا انْقَلَبْتَ أَرَنْتَ تَدُقُّ قَفَا الْمُتَّقِفِ وَالْحَبِيئِينَ ^٨	الوافر
إنسان	٦٦ أَلَمَّا تَعْرِفُوا مِنَّا وَمِنْكُمْ كِتَابِبَ يَطْعَنُ وَيَرْتَمِينًا ^٩	الوافر
إنسان	٦٧ عَلَيْنَا الْبَيْضُ وَالْيَلْبُ الْيَمَانِي وَأَسْيَافُ يَقْمُنُ وَيَحْنِينًا ^{١٠}	الوافر
إنسان	٦٩ إِذَا وُضِعَتْ عَنِ الْأَبْطَالِ يَوْمًا رَأَيْتَ لَهَا جُلُودَ الْقَوْمِ جُونًا ^{١١}	الوافر

^١ ولقد حلفت ألا يزال كسحي لسيف قاطع بمنزلة البطانة للظاهرة. المصدر نفسه، (طرفة)، ص ٢١٣.

^٢ المصدر نفسه، (طرفة)، ص ٢١٧.

^٣ المصدر نفسه، (زهير بن أبي سلمى)، ص ٢٨٣.

^٤ طعنته طعنة في عجلة ترشّ دما من طعنة نافذة كلون العندم. المصدر نفسه، (عنتره)، ص ٣٤٢.

^٥ المصدر نفسه، (عنتره)، ص ٣٤٥.

^٦ أي لم تكن خدما لأمك حتى نعبأ بتهديدك لها. المصدر نفسه، (عمرو بن كلثوم)، ص ٤٠٢.

^٧ جعل القناة التي لا يتهيأ تقويمها مثلا لعزتهم التي لا تضعض. المصدر نفسه، (عمرو بن كلثوم)، ص ٤٠٤.

^٨ إن عزتهم لا تضعض لمن رامها بل تهلكه وتقهره. المصدر نفسه، (عمرو بن كلثوم)، ص ٤٠٤.

^٩ ألم تعلموا كتابنا منا ومنكم يطعن بعضهم بعضا. الأنباري، شرح القصائد السبع، (عمرو بن كلثوم)، ص ٤١٣.

^{١٠} المصدر نفسه، (عمرو بن كلثوم)، ص ٤١٤.

^{١١} إذا خلعتها الأبطال يوما رأيت جلودهم سودا للبسهم إيها. المصدر نفسه، (عمرو بن كلثوم)، ص ٤١٦.

إنسان	الخفيف	١ أَدْنَتْنَا بِيَيْنَهَا أَسْمَاءُ رُبَّ نَأَوٍ يُمَلُّ مِنْهُ النَّوَاءُ ^١
إنسان	الخفيف	٣٢ هَلْ عَلِمْتُمْ أَيَّامَ يُنْتَهَبُ النَّاسُ سُ غَوَارًا لِكُلِّ حَيٍّ عُوَاءُ ^٢
إنسان	الخفيف	٥٢ وَتَمَانُونَ مِنْ تَمِيمٍ بِأَيْدِيهِمْ هَمَّ رِمَاحُ صُدُورُهُنَّ الْقَضَاءُ ^٣
إنسان	الكمال	٥١ لِنَدْوَدُهُنَّ وَأَيَقَنْتُ إِنْ لَمْ تَدُدْ أَنْ قَدْ أَحَمَّ مَعَ الْحُنُوفِ جِمَامُهَا ^٤
إنسان	الكمال	٦٣ وَلَقَدْ حَمَيْتُ الْحَيَّ تَحْمِيلُ شِكَايِي فُرْطٌ وَشَاجِي إِذْ عَدَوْتُ لِجَامُهَا ^٥
إنسان	الطويل	٢٢ وَمَا دَرَفْتُ عَيْنَاكَ إِلَّا لِتَضْرِبِي بِسَهْمَيْكَ فِي أَعْشَارِ قَلْبٍ مُقْتَلٍ ^٦

سعيًا من خلال هذا الجدول إلى رصد الأبيات الشعرية التي ضممت الاستعارات التصورية الأنطولوجية "الحرب إنسان" ونحن على وعي بأن مرحلة التحديد وبأن الجانب الكمي غير كافٍ ومن هنا نتأكد حاجتنا الماسة للتأويل ليكتمل بناء المعنى.^٧

٤- الحرب إنسان في شعر المعلقات

إن جلَّ التصورات تفهم جزئيًا بواسطة تصورات أخرى، وإننا نتصور عادة ما هو محدد بوضوح أقل عن طريق ما هو محدد بوضوح أكثر. فرغبة الإنسان في فهم أشياء العالم التي تبدو معقدة وملغزة، من شأنها أن تكشف الطابع النسقي للتصورات المحددة استعاريًا، هذه التصورات تفهم بواسطة استعارات. واللافت للانتباه في المدونة أن شعراء المعلقات احتفوا بتشخيص الحرب وأعطوها بعض خصائص الإنسان، ونلمس ذلك في البيت التالي لعمرو بن كلثوم (الوافر):

^١ يريد أنها وإن طالت إقامتها لم أملها. المصدر نفسه، (الحارث بن حلزة)، ص ٤٣٣.
^٢ قد علمتم غناءنا في الحروب وحمائنا أيام إغارة الناس بعضهم على بعض. المصدر نفسه، (الحارث بن حلزة)، ص ٤٧٠.
^٣ المصدر نفسه، (الحارث بن حلزة)، ص ٤٨٥.
^٤ المصدر نفسه، (البيد)، ص ٥٦٩.
^٥ ولقد حميت قبيلتي وأنا على فرسي أتوشح بلجامها إذا نزلت لأركبها. المصدر نفسه، (البيد)، ص ٥٧٩.
^٦ المصدر نفسه، (امرؤ القيس)، ص ٤٧.
^٧ لا يكون (جورج) وجونسن (مارك)، الاستعارات التي نحيا بها، ترجمة عبد الحميد جحفة، دار تويقال للنشر، الطبعة الأولى ١٩٩٦ الاستعارات التي نحيا بها، ص: ١٢١.

«عَلَيْنَا الْبَيْضُ وَالْيَلْبُ الْيَمَانِي

وَأَسْيَافُ يَفْمَنَ وَيُنْحَنِينَا»^١

والنَّاطِر في هذا البيت يستشف أن التصورات مبنية استعارياً بطريقة نسقية مثلما هو الشأن في استعارة «الحرب إنسان»، فقد استعرنا أفعالاً من قبيل «يَفْمَنَ وَيُنْحَنِينَا» من مجال خاص وهو «الإنسان» للحديث عن تصورات تقابلها في مجال آخر تمّ تحديده استعارياً وهو "الحرب" ودلت على ذلك عبارات من نحو «الْبَيْضُ وَالْيَلْبُ الْيَمَانِي وَأَسْيَافُ».

وجليّ أنّ شعراء المعلقات أولوا الحرب أهمية قصوى في حياتهم فما كادت تفارقهم وما كانوا يفارقونها، إنها دائمة الحضور في حياتهم اليومية في مآكلهم ومشربهم وفي رحلاتهم وجميع أنشطتهم، ممّا جعلهم «يؤنسونها». لقد اغتدت الحرب إنساناً بما أحالتنا عليه بعض لوازم الإنسان، وبما أنّ الاستعارة على مبدأ عرفاني رئيس تركز، فإنّها لا تقوم حتى تتمثّل مجالاً ما على أساس مجال آخر تتوسطهما علائق الإسقاط المفهومي (Conceptuel mapping) بما هي جملة التناسبات أو الترابطات مثلما أسماها «جونسن» و«لايكوف».

ويحسن بنا أن نشير إلى كون الإسقاط كائناً ما بين المستويات العليا من المقولات، والإسقاط محكوم بمبدأ الثبات من حيث كونه يحافظ على الأبعاد الطوبولوجية ويجعل الغلبة فيه للمجال الهدف^٢.

ويمكن أن نتوضّح ذلك أكثر من خلال شبكة الإسقاط المفهومي للاستعارة التصورية الأنطولوجية «الحرب إنسان».

شبكة الإسقاط المفهومي: الحرب إنسان

المجال الهدف	المجال المصدر
الإنسان	الحرب
الهدف (الصراع من أجل البقاء)	تحقيق هدف ما (الصراع حتى الفوز)
التخطيط لمجابهة الموت بالحياة	التخطيط
تحدي الظروف القاسية والاحتمال والمقاومة.	التحدي
الدفاع عن النفس لأجل الحياة	الدفاع
الاستسلام والخضوع لها.	الهزيمة
الأمل والصبر والمقاومة والرغبة في الحياة.	الانتصار

^١ الإنباري، شرح القصائد السبع، ص: ٤١٤.

^٢ الأزهر الزناد، النص والخطاب، مباحث لسانية عرفانية دار محمد علي للنشر، مركز النشر الجامعي، تونس، الطبعة الأولى، ٢٠١١ ص: ٢٣٥.

نلاحظ من خلال شبكة الإسقاط المفهومي تناسب عناصر الحرب مع عناصر الإنسان، لقد عبّر شعراء المعلقات عن مجال الحرب بمجال الإنسان، فالواضح أنّ ذلك المفهوم قد كان بشيء من الغموض في أذهانهم مشحونا، لذا عمدوا إلى تشخيصه قصد تيسير فهمه والتخفيف من صبغة الإبهام فيه. فهم لا يعتبرون الحرب من حيث الجانب الفيزيائي فيها، وإنما حين يقومون بأusstها فإنهم يفهمونها باعتبارها هاجسا سيطر على أذهانهم وتصوراتهم، وهم بذلك يرسّخون فكرة الصراع الدائم باعتباره حربا من أجل بقاء الإنسان. ونشير إلى أنّ شعراء المعلقات أتى حاولوا فهم ما يبدو لهم غير واضح في أذهانهم من خلال تشخيصه فإنّ ذلك الفهم يبقى جزئيا ومحدودا، فالشيء الذي نشأ مبهما من المرّة الأولى أتى حاولنا إيجاد طريقة لفهمه فإنّ الفهم يتوضّح قليلا في أذهاننا وليس كثيرا ممّا يؤكّد جزئية فهم هذه الاستعارات.

وبذلك، أمكن لنا استجلاء وظيفة الاستعارة الأنطولوجية القائمة على الفهم والإفهام، لقد سعى شعراء المعلقات لفهم تجاربهم المعقّدة عن طريق الاستعارات الأنطولوجية إنهم من خلالها يبنون «نوعا من الوجود»^١ ولقد أسهمت تلك التناسبات المعرفية التي فيها نظرنا، في إجراء عملية الإسقاط المفهومي وفي بلورة الطريقة التي إليها عمد شعراء المعلقات لفهم تجاربهم وتصوراتهم. وقد لاحظنا أنّ هناك قوالب من التناسبات الأنطولوجية قارة ما بين المجالين، فإذا ما انطبقت تلك القوالب على مجال ما (سواء أكانت بنية معرفية أم وحدة معجمية) حدثت الاستعارة وإذا ما لم تنطبق تلك القوالب لم تحدث الاستعارة^٢.

وليس يخفى انبثاق تلك الاستعارات من صميم التجربة وإلاّ فعمّ يعبر شعراء المعلقات إن لم يكونوا قد عبّروا عن تجاربهم في الحياة استعاريا، فالاستعارات الأنطولوجية تتأسس على «نسقية داخل حقل تجربتنا»^٣ فما كنّا لفهم ماهية الحرب لدى شعراء المعلقات لولا تصوّرها استعاريا، فقد يتسنى لنا أن نفهم «الحرب» كلمة مفردة عن سياقها فهما مغايرا، لكنّ تشخيص شعراء المعلقات لها، أكّد حالة الحرب التي تغشّت حياتهم في جوانبها جميعا، وأثبتت في الوقت نفسه «القدرة على تصوّر الإنسان وتجاوز ذاته، ممّا يدفعه إلى تجاوز أيّ حالة من حالاته الراهنة»^٤ فشاعر المعلقة حينما يحارب الموت بالحياة ويواجه فإنّه بذلك ينخرط في العالم و«عندئذ سوف يكون على نحو ما يصنع من ذاته»^٥ فالإنسان أبدا على أهية الاستعداد «لإدراك معنى وجوده»^٦ فلئن سعى إلى فهم تجاربه فذاك سعي الذي يبحث عن حقيقة وجوده، إنّ «قدرة الإنسان الأنطولوجي أن يكون باحثا لهويته بالانخراط في الوجود وقدره الملازم كذلك، أنّه كائن ناطق بالوجود»^٧.

هكذا عبّر شعراء المعلقات عن أشياء عالمهم المستعصية على الفهم من خلال تشخيصها، فكانت الاستعارة الأنطولوجية مرآة لفهم العالم وسبيلا لنحت كيان الإنسان فهو مركز العالم و«دون العالم لا وجود للشخص والذات البشرية، ودون الذات البشرية أو الشخص الإنساني لا وجود للعالم»^٨.

^١ انظر خاتمة كتاب الاستعارات التي نحيا بها، ص: ٢٢١.

^٢ الأزهر الزناد، النصّ والخطاب، ص: ٢٣٦.

^٣ جون ماكوري، الوجودية، ترجمة إمام عبد الفتّاح إمام، مراجعة فؤاد زكريا سلسلة عالم، الكويت عدد ١٩٨٢ ص: ١١٥.

^٤ المرجع نفسه، ص: ١٤.

^٥ محمّد بن عياد، الكيان والبيان، جامعة صفاقس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس وحدة البحث في المناهج التأويلية، مطبعة التسفير الفني بصفاقس، ط١- ٢٠١٣، ص: ١٦.

^٦ جون ماكوري، الوجودية، ص: ١١٥.

والحاصل ممّا تقدّم، أنّ هذه الاستعارات الأنطولوجية كانت "ضروريةً لتحقيق بعض حاجاتنا"^١.

ولعلنا قد نفهم من تبعيض "جونسن" و«لايكوف» للحاجيات أنّ عملية الفهم تخصّ الجزء ولا تشمل الكلّ، معنى ذلك أنّ لها طبيعة جزئية بالأساس.

ويحسن بنا التنبيه إلى أنّ الاستعارة الأنطولوجية تشمل تجربة الإنسان مع الأشياء الفيزيائية التي نسعى إلى تشخيصها ويظهر ذلك في قول «جونسن» و«لايكوف»: "فتجاربنا مع الأشياء الفيزيائية مصدر لأسس استعارات أنطولوجية متنوعة جدًّا"^٢.

مثلما أنّها تشمل تجربته مع الأشياء المجردة التي يحاول فهمها من خلال تشخيصها ونستوضح ذلك من خلال قول «جونسن» و«لايكوف»: "إنّ النّظر إلى شيء مجرد مثل التضخّم عن طريق ماهو بشري له سلطة تفسيرية تشكّل بالنسبة إلى غالبيتنا الوسيلة الوحيدة لإعطائه معنى"^٣. من هنا نفهم أنّ الاستعارة الأنطولوجية قد تنظر إلى الأشياء الفيزيائية من خلال تشخيصها، وقد تنظر إلى الأشياء المجردة عبر تشخيصها أيضاً، والمهمّ من هذا وذاك أنّ تتوضّح تلك التصورات التي تكون ملموسة بصفة أقلّ مجردة كانت أم فيزيائية من خلال التصورات التي تكون ملموسة أكثر، فالأشياء الفيزيائية وإن كانت بالنسبة إلينا مفهومة فإنّ ذلك الفهم سيتضح أكثر إذا ما استدعينا مجالاً ملموساً أكثر، وأكثر وضوحاً.

// -٥

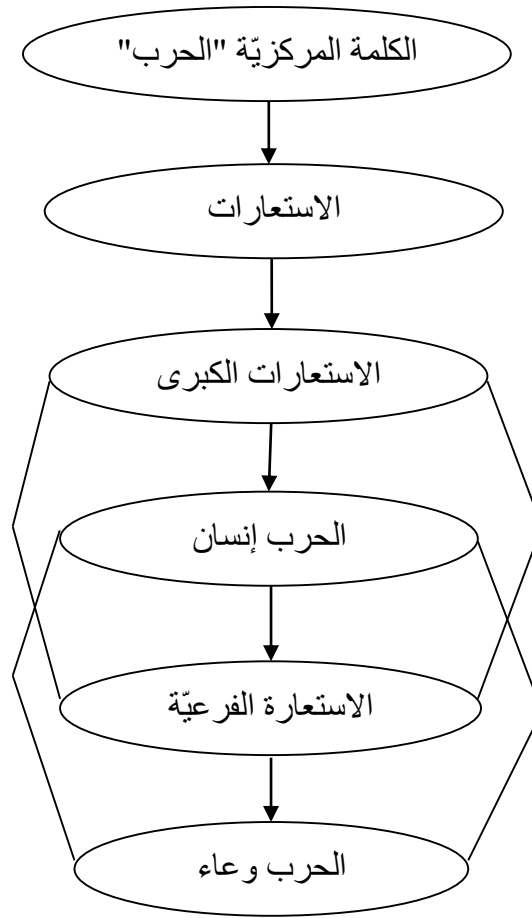
تفاعل الاستعارة الأنطولوجية التصويّة الكبرى الحرب إنسان والاستعارة الأنطولوجية الفرعية الحرب وعاء

- نشير إلى أنّ الاستعارات التصويّة الأنطولوجية في شعر المعلّقات تألفت من استعارات كبرى وتمثّلت في الاستعارة "الحرب إنسان" واستعارة فرعية تمثّلت في استعارة "الحرب وعاء" ونتبيّن ذلك من خلال الترسّيمة التالية.

^١ انظر الاستعارات التي نحيا بها، ص: ٤٦.

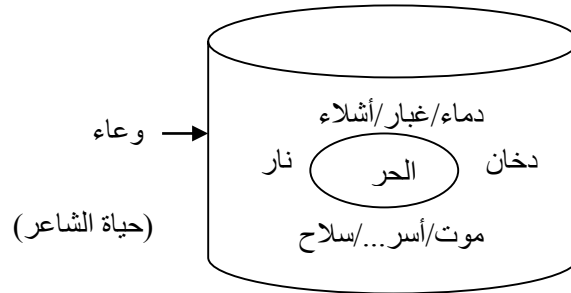
^٢ المرجع نفسه، ص: ٤٥.

^٣ الاستعارات التي نحيا بها، ص: ٤٦.



وغير خفيّ ما في الاستعارة الكبرى «الحرب إنسان» من حضور مكثّف للحرب في حياة الإنسان بمختلف مجالاتها، إلى حدّ أنّ الشاعر مضى في تصوّره لها، إلى أنسنتها وتشبيئها، لقد غدت مثل الإنسان ما دامت تشترك معه في خصائصه البشريّة، فتجادل بفمها وتبطنش بيدها وتستنشق الغبار الذي تخلفه الأقدام والحوافر، وتبصر الموت يقترب وتسمع أصوات الضوضاء والغوغاء والمعمعة، وتأتي على قدم وساق بصفة دائمة. أليست الحرب تبعا لهذا كلّها حاملة بعض خصائص البشر؟ ألا يحقّ لنا أن نعتبر أنّ ابتلاء الشاعر الجاهليّ بالحرب وتصوره المعقّد إزاءها، دفعاه لأنسنتها علّها بذلك تمكّنه من إعطاء تفسير متّسق لسبب ابتلائه بهذه الحرب^١.

إنّ إسناد الشاعر صفات بشريّة للحرب أكدّ حلول الحرب في الإنسان وحلوله فيها، لقد كان يحيا بها ويعقد الأمل في البقاء من خلالها، ولعلّ هذه الاستعارة الكبرى «الحرب إنسان» تتفاعل تفاعلا كبيرا مع الاستعارة الفرعية «الحرب وعاء»، أليست الثانية وليدة الأولى وكأنّ الوعاء هو حياة الشاعر قد ملئ حربا وهذا ما تبيّنه الترسيم التآلية:



نلاحظ أنّ حياة الشاعر الجاهليّ مملوءة حربا. إنّها في شعر المعلّقات ليست تنتهي، فما إن ينطفئ فتيل واحدة حتّى تندلع أخرى، معنى ذلك أن كميّة الحرب الموجودة داخل الوعاء أي داخل حياة الإنسان زادت أو نقصت، فالأمر سيّان طالما أنّها لا تنتهي ولا تتوقّف. وقد نخال أنّ توقّفها يهوي بالإنسان الجاهليّ نحو الموت، فكيف لا وهي مصدر عيشه، ومطيّة لبقائه، ونهايتها إعلان عن فناءه. وكيف تكون الحرب عنوانا لحياة الشاعر والحال أنّها مثلما يقول «زهير بن أبي سلمى»: (من الطويل)

«مَنَى تَبَعْتُوْهَا تَبَعْتُوْهَا دَمِيمَةً

وَتَضَرَّ إِذَا ضَرَّيْتُمُوهَا فَتَضَرَّم»^٢

أفلا ننظر إلى الوعاء ثانية وثالثة كيف ملئ نارا ودماء ودخانا وسلاحا وأسرى وموتا وأشلاء وغبارا؟ أليست تظهر في صورة الوحش الضاري والنّار المستعرة؟ فالوعاء إذن قد احتوى أشياء سيّئة مصدرها الحرب، أي لا جدال في اعتبار الحرب «شيئا سيّئا»، بل إنّ الشاعر «زهير بن أبي سلمى» يعتبر حتّى مذاقها سيّئا ومرّا إذ يقول (من الطويل)

^١ انظر، الاستعارات التي نحيا بها، ص: ٥٤.

^٢ الأبنباري، شرح المعلّقات السبع، ص: ٢٦٧.

«وما الحربُ إلا ما عَلِمْتُمْ ودُقْتُمْ»

وما هُوَ عنها بِالْحَدِيثِ الْمُرْجَمِ^١

فالحرب إذن لمن خاض غمار تجربتها مرير طعمها، إلا أنها أمر ضروري بالنسبة إلى حياة الشاعر، فرغم ما تقضي إليه الحرب من دماء سائلة، وإبادة شاملة، ومرارة طائلة، فإنه لا بدّ منها رغم شرّها المستطير، ما دامت ضامنة لاستمرار حياة الجاهليّ، فلنكن متى أردت أن تكون وتندلع حتى تستمرّ الحياة وتبقى. ومن هنا يفرض تفاعل الاستعارتين الكبرى «الحرب إنسان» والفرعية «الحرب وعاء» إلى ولادة استعارة جديدة وهي «الحرب شيء سيّء».

ولنتصوّر، أنّ الذات ما إن شاركت في الحرب حتى تجد نفسها في مواجهة مع الآخر حيث يكمن ذاك الصراع من أجل البقاء، فكلاهما يتصارع من أجل الحياة، والنتيجة الطبيعيّة التي تنتظر بلوغها هي حياة أحد الطرفين وفناء أحدهما الآخر. أي أنّ صراع الذات مع الآخر وتحاربهما من أجل الحياة سيفرض حتماً إلى انتصار لأحدهما وهزيمة لأحدهما الآخر، وموته، ولأنّ الذات أو الآخر كلاهما إنسان، وكلاهما ينتمي إلى الثقافة ذاتها والعصر ذاته فإن الحرب سينجم عنها موت أحد الطرفين أي موت الإنسان، ولا يهمننا من يكون هذا الإنسان بقدر ما تهمننا نتيجة الموت الناجمة عن أي حرب، فإذا كانت كلّ حرب يسقط فيها أموات - وإن أبقت على آخرين على قيد الحياة- فإنّ كلّ مشارك في الحرب يجهل مصيره وما يرتقبه بعدها. تلك إذن قاعدة عامّة أو قانون يقضي "بأنّ البشر جميعاً فانون، فالإنسان يعرف من خلال التجربة أنّه هو أيضاً عليه أن يلقى حتفه"^٢ ويبدو اهتمام هرقلطس بموت البشر بالغ الوضوح في عدد كبير من الشذرات التي تعالج هذا الموضوع، إذ "يسمّي القوس بالحياة، لكن عمله هو الموت والخالدون فانون والفانون خالدون وأحدهما يعيش بموت، الآخر ويموت بحياة الآخر"^٣ من هنا نتبين أنّ وعي الإنسان بالموت جعله يصارع أبداً من أجل الحياة ويتجسّد هذا الصراع الدائم في الحرب التي يخوضها لحظة بلحظة، ومادامت نتيجة كلّ حرب إمّا حياة وإمّا موت، فإنّ الذي ينتصر ويبقى على قيد الحياة وينجو من هذه الحرب، ما ينفكّ يستعدّ لمواجهة حرب أخرى أو بالأحرى ما ينفكّ يتهيأ لمواجهة الموت مرّة ثانية، فيدخل القلق نفسه مرّة أخرى ومرات عديدة، وليس يهناً بالعيش مستقرّاً إن هو انتصر ومن الحرب نجا، يكفي أنّ الحيرة تسري في بدنه، فمهما حاول الإنسان البدائي أن يتناسى واقعة الموت أو "يتغافل عن فكرة الفناء، فإنه لا بدّ أن يجد نفسه مهموماً بهذه الواقعة محاصراً بوسواس الفناء"^٤. وهذا ما يفرضي إلى ولادة استعارة جديدة تمخّضت عن تفاعل كلّ الاستعارات التصوريّة الأنطولوجية والاتجاهية والبنويّة وهي استعارة «الحرب موت»، فالشاعر الجاهليّ لا يحيا إلا وهو يحارب ولا يحيا إلا وهو يصارع الموت، ولا يحيا إذن إلا وهو يموت، لأنّ حياته المتشحة بالقلق والخوف من الموت هي إدراك منه، بأنّ كلّ لحظة يحارب فيها هي لحظة نحو الفناء. ومن ثمّ تجمّعت الاستعارات الثلاث باختلاف أجزائها وخصائصها، لتأني بنا بعيداً عن الفهم الجزئي لتصور شاعر المعلّقة للحرب وتسوقنا إلى فهم شامل وواضح انكشف لنا من خلال الاستعارة التصوريّة الجديدة الجامعة: «الحرب موت»،

^١ المصدر نفسه و الصفحة نفسها.

^٢ جاك شورون، الموت في الفكر الغربي، ترجمة كامل يوسف حسين، مراجعة د.إمام عبد الفتّاح، سلسلة المعرفة، الكويت عدد ٧٦٤، ١٩٨٤.

^٣ تعني كلمة القوس أنّ القيّارة لا تدبّ فيها الحياة بغير القوس ولكن كثرة فعلها يهلك القيّارة، انظر: شذرات هرقلطس رقم ٦٦، ٦٧، ٧٨ نقلا عن: د. أحمد فؤاد الأهواني، فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، دار إحياء الكتب العربيّة، ١٩٥٤، ص ص ١٠٨/١٠٩.

^٤ زكريا إبراهيم، مشكلة الحياة، مقال ضمن سلسلة إقرأ، عدد ١٦١، دار المعارف القاهرة، ص: ١٠.

فأنتى كانت الحرب ضرورة بالنسبة إلى الشاعر، فإنّ تلك الضرورة أكرهته عليها صعوبات الحياة، ودخوله الحرب مكرها لغاية في نفسه هو الذي شحن تصوّر الحرب بقوة تصوّر آخر وهو الموت، فالحرب بالنسبة إليهم يعنى الموت، ممّا يفسّر أنّ الشاعر الجاهليّ قد عمد إلى فهم المجال المصدر «الحرب» عن طريق المجال الهدف «الموت».

خاتمة:

تبيّنا من خلال الاستعارة الجامعة "الحرب حياة" أنّ الحرب صراع من أجل البقاء وهي روحُ شاعر المعلّقات ليس يقدر على الاستغناء عنها، إنّها تُحقّق مطامحه وتُكمّل نقائصه، وتقضي حوائجه، فالنفس تصطدم والإنسان مع صعوبات الحياة يتصارع، فحياته إذن حرب ظاهرة متجسّدة في الحرب الماديّة، وحرب مُضمرة، ونقصد بذلك الحرب النفسية إذ أنّ شاعر المعلّقة يحرص على تجاوز الخطّ التهميشيّ المنتسب في افتقاره النفس وهو المحفّز الرئيس لملء الفراغ وإعادة التوازن عن طريق البحث عن مُغنيات تكتمل بوجود الآخر. وتتمثّل هذه المغنيات في إبراز القوّة والشجاعة والبطولة في الحرب ممّا يجعلنا ننتبه إلى أنّه يشكو من نقص، ثمّ تمّ سدّه من خلال رحلة الحرب وإن بصفة جزئية.

النتائج:

غنيّ عن البيان أنّ الاستعارة الجامعة "الحرب حياة" اختزلت تجربة شاعر المعلّقة وتصوره الذي يقضي بأكتساح الحرب عالمه وحياته، حرب للبحث عن الماء، وحرب لضمان البقاء، وحرب للأخذ بالتأثر وحرب لتحصيل القوت. فالحرب إذن لدى شاعر المعلّقة رحلة بحث، ولسنا نغفل عن دور الاستعارة التّصوريّة في الفهم والإفهام. فلئن كان المعنى مخفيا فقد أظهرته، ولئن كان التّصوّر غير واضح، فقد أجلّته، ولئن كان كامنا في الدّاخل فقد أخرجته.

المُتّرحات:

يجب أن نعي بأنّ الفهم الذي تمدّنا به الاستعارات التّصوريّة، أنّى بلّغ، ومهما أظهر وصوّر، فإنّه يُخفي لا محالة بعض الخصائص الكامنة في الاستعارة، فيقع تبئير عناصر فيها وإخفاء أخرى ممّا يجعلنا حيال أجزاء مستعملة من الاستعارة وأجزاء مهملة لا حاجة لنا بها، ومن هنا نوصي بأهميّة الانسجام الآليّ بين الشّكل والمحتوى للاستعارة التّصوريّة.

قائمة المصادر

* أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري، شرح القصائد الطوال الجاهليات، تحقيق وتعليق: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف الطبعة الرابعة ١٩٨٠.

قائمة المراجع

* د.أ حمد فؤاد الأهواني، فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٤.
* الأزهر الزيادة، النص والخطاب، مباحث لسانية عرفانية، دار محمد علي للنشر الجامعي، تونس، الطبعة الأولى، ٢٠١١.

- *جاك شورون، الموت في الفكر العربي، ترجمة كامل يوسف حسين مراجعة إمام عبد الفتاح إمام سلسلة عالم المعارف، الكويت عدد ٧٦، ١٩٨٤.
- *جون ماكوري، الوجودية ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، مراجعة فؤاد زكرياء سلسلة عالم الكويت عدد ١٩٨٢.
- *زكريا إبراهيم، مشكلة الحياة، مقال ضمن سلسلة اقرأ، عدد ١٦١ دار المعارف القاهرة.
- * لا يكون وجونسن، الاستعارات التي نحيا بها، ترجمة عبد الحميد جحفة دار تويقال للنشر الطبعة الأولى ١٩٩٦.
- * محمد بن عياد، الكيان والبيان، جامعة صفاقس كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، وحدة البحث في المناهج التأويلية مطبعة التفسير الفني بصفاقس ط١. ٢٠١٣.

جميع الحقوق محفوظة © 2020، الباحثة/ جهاد معلي، المجلة الأكاديمية للأبحاث والنشر العلمي.

(CC BY NC)